مقدمة علم التزكية والأخلاق

جمعها
زهران كاده



الحمد لله رب العالمين والصلاة السلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد فاعلم أنَّ مقدمةَ كلِّ علم هي: ما يتوقف عليه الشروعُ على بصيرةٍ في ذلك العلم، وهي المعبر عنها أيضا بمبادئ العلم(1)، وقد اشتهر عند المتأخرين كونُها عشرة، ولبعضهم فيها نَظْمٌ، ونحن مقتصرون في هذه المقدمة(2) على ستةٍ من مبادئ علم التزكية والأخلاق، وهي: التعريف، والموضوع، والغاية والفائدة، والفضل والشرف، والاسم، والحكم الشرعي لتحصيله.

واللهَ نسألُ أن يُعَرِّفَنا حقائق هذا العلم الجليل، وأن يجعلنا من عباده الصالحين المتقين، وأن يكرمنا في الآخرة بجوار نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، وأن يتم علينا نعمته بالنظر إلى وجهه الكريم، إنه هو السميع العليم.

---

(1) ويسميها قدماءُ الحكماء "الرؤوس الثمانية". (كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 14)

(2) وكنت قد وضعت كتابا سميته "بلوغ المأمول في تحقيق مبادئ علم الأصول"، قد استوفيتُ فيه الكلامَ في بيان حقيقة المبادئ العشرة عموما، وما يتعلق منها بعلم أصول الفقه خصوصا، ففيما ذكرناه ثَم غنيةٌ عن إثباته هنا، إلا ما يطلبه المقام طلبا حثيثا.

[1]

التعريف

علم الأخلاق هو: علم يُعرَف به أنواعُ الفضائل وكيفيةُ اكتسابِها لِتَتَحَلَّى النفسُ بها، وأنواعُ الرذائل وكيفيةُ اجتنابها لِتَتَخَلَّى عنها(3).

وقال التهانوي: علم السلوك هو: معرفة النفس ما لها وما عليها من الوِجدانيات(4).

وقَيَّدَ بالوِجدانيات لإخراج ما عداها، لأن ما للنفس وما عليها يتناول الاعتقادياتِ كوجوب الإيمان ونحوه، والعملياتِ كالصوم والصلاة والبيع ونحوها، والوِجدانياتِ، أي: الأخلاق الباطنة والمَلَكات النفسانية، كالزهد والصبر والرضا وحضور القلب في الصلاة ونحو ذلك(5).

والمَلَكاتُ واحدُها مَلَكة، وهي الكيفية الراسخة، ويقابلها الحال، وهي: الكيفية التي تَعْرِض وتزول(6).

والمراد بالكيفية: الصفة، وصفةُ الشيء تسمى كيفيةً لأنه يُسأل عنها بـ"كيف"، كما يسمى قدرُه كَمِّيَّة، وعلتُه لِمِّيَّة(7).

قال الشريف الجرجاني: الملَكة: هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقُه: أنه تحصُل للنفس هيئة بسبب فعلٍ من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة: كيفيةٌ نفسانية، وتسمى حالةً ما دامت سريعةَ الزوال،

---

(3) حاشية ابن عابدين على الدر المختار: 1/ 43 ، والفوائد الخاقانية لابن صدر الدين الشرواني، بواسطة "كشف الظنون"، ونقله أيضا صاحب أبجد العلوم: 1/ 253 .

(4) كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 42 ، و2/ 1230

(5) السابق: 1/ 40

(6) المبادئ النصرية للحويحي: 6

(7) ثمر الثمام للأمير: 96

فإذا تكررت ومارستْها النفسُ حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئةَ الزوال فتصير مَلَكَة(8).

فعلم الأخلاق: هو العلم الذي يَبحث عن حالة النفس، ونزوعها في أفعالها إلى الخير أو الشر، وعن الصفات الإنسانية عاليها وسافلها، وعن بقاء تلك الصفات في الإنسان وقبولها للتغيير.

وقد قال العلماء: إن الأخلاق هي صورةُ النفس المستترة التي تظهر في الإنسان عند القيام بأفعاله التي لا تكَلُّف فيها.

ولا تكون الأفعال خُلُقا للإنسان إلا إذا كانت صادرةً لا عن تكلُّف، ولا عن إجهادِ نفس، ولا عن تفكير، فالأعمال التي يحتاج فاعلُها إلى إكراه نفسِه عليها لا تُعَدُّ من خُلُقه، لأنها ليست سجيةً(9) له، ولا طَبْعا(10).

قال الغزالي: الخُلُق(11) عبارة عن هيئةٍ في النفس راسخة، عنها تَصْدُر الأفعالُ بسهولةٍ ويُسْر من غير حاجة إلى فِكْرٍ ورَوِيَّة(12).

---

(8) التعريفات: 229 ، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون: 2/ 1396 ، ودستور العلماء: 2/ 4

(9) السجية، والطبيعة، والغريزة، والجِبِلَّة، والخليقة، والسَّليقة: ألفاظٌ مترادفة بمعنى واحد. (رفع النقاب عن تنقيح الشهاب للشوشاوي: 1/ 173)

(10) مقال في الأخلاق لعلي فكري، أمين دار الكتب المصرية، نشرته مجلة جمعية مكارم الأخلاق، 1/ 7 –10 رجب 1343هـ. وهو ضمن مجموع مقالات كبار كتاب العربية لمحمد إبراهيم الحمد.

(11) قال الحافظ في "الفتح" : الخُلُق بضم الخاء واللام ويجوز سكونها، قال الراغب: الخَلْق والخُلْق يعني بالفتح وبالضم في الأصل بمعنى واحد، كالشَّرْب والشُّرْب، لكن خُصَّ الخَلْق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلْق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة انتهى. (فتح الباري لابن حجر: 10/ 456)

(12) في "المصباح" : الروية: الفكر والتدبر، وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز تخفيفا، وهي مِن رَوَّأْتُ في الأمر بالهمز إذا نظرتَ فيه اهـ . وفي "مختار الصحاح" : رَوَّأَ في الأمر تروئة وترويئا بالمد: نظر فيه ولم يعجل، والاسم: الروية، تركوا همزها اهـ .

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعالُ الجميلة المحمودة عقلا وشرعا، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعالَ القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا(13).

وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذلُ المال على الندور لحاجةٍ عارضة لا يقال: خُلُقُه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوتَ رسوخٍ(14).

وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعالُ بسهولة من غير رَوِيَّة، لأن مَن تكلَّف بَذْلَ المال أو السكوتَ عند الغضب بجَهْدٍ(15) وروية، لا يقال: خلقه السخاء والحِلْم.

فههنا أربعة أمور: أحدها: فعل الجميل والقبيح، والثاني: القدرة عليهما، والثالث: المعرفة بهما، والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحدِ الجانبين ويتيسر عليها أحدُ الأمرين إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرُبَّ شخصٍ خُلُقُه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل، إما لباعثٍ أو لرياء، وليس هو عبارة عن القوة، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحدة، وكلُّ إنسان خُلِق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يُوجِب خُلُقَ البخل ولا خلق السخاء، وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها

(13) قال ابن عاشور: فيشمل طبائعَ الخير وطبائع الشر، ولذلك لا يُعْرف أحدُ النوعين من اللفظ إلا بقيدٍ يضم إليه فيقال: خلق حسن، ويقال في ضده: سوء خلق، أو خلق ذميم، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، وفي الحديث: "وخالق الناس بخلق حسن". فإذا أُطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن، كما قال الحريري في "المقامة التاسعة" : "وخلقي نعم العون، وبيني وبين جاراتي بون" أي: في حسن الخلق. (التحرير والتنوير: 19/ 171)

(14) ولهذا لما لم يذكر السعد قيدَ "الرسوخ" في تعريف الخُلُق فقال: كيفيةٌ نفسانية يصدر عنها الأفعالُ بسهولة، كتب الدسوقي عليه: كان الأولى أن يعبر بقوله: "ملكة يصدر عنها"، لأجل إفادة اشتراط الرسوخ في النفس، لأن صفات النفس لا تسمى خلقا إلا إذا كانت راسخة. (حاشية الدسوقي على الشرح المختصر: 3/ 65، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 762)

(15) الجهد بفتح الجيم وضمها: الطاقة، وقرئ بهما قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ}، والجَهد بالفتح: المشقة. (مختار الصحاح)

تستعد النفسُ لأنْ يصدر منها الإمساكُ أو البذل، فالخلق إذًا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة(16).

(16) الإحياء: 3/ 53

[2]

الموضوع

اعلم أنَّ موضوعَ كلِّ علم شرعيا كان أو عقليا هو ما يُبحث في ذلك العلمِ عن عوارضه الذاتية، أي: الأحوال العارضة لذات ذلك الموضوع.

ومسائلُ كلِّ علمٍ: معرفةُ الأحوال العارضة لذات موضوع ذلك العلم.

فموضوع علم الطب مثلا: هو بدن الإنسان، لأنه يُبحث فيه عن الأمراض اللاحقة له، ومسائله: هي معرفة تلك الأمراض.

وموضوع علم النحو: الكلمات، فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء، ومسائله: هي معرفة الإعراب والبناء.

وموضوع علم الفرائض: التركات، فإنه يبحث فيه من حيث قسمتها، ومسائله: هي معرفة حكم قسمتها(17).

وأما علم الأخلاق، فقال التهانوي: موضوعُه: أخلاقُ النفس، إذ يُبحث فيه عن عوارضها الذاتية، مَثَلًا: حب الدنيا في قولهم: "حب الدنيا رأس كل خطيئة"، خُلُقٌ من أخلاق النفس، حُكِم عليه بكونه رأسَ الخطايا ورأسَ الأخلاق الرذيلة التي تتضرر بسببها النفس، وكذا الحال في قولهم: "بغض الدنيا رأس الحسنات"(18).

---

(17) انظر: شرح الكوكب المنير: 1/ 33 – 36

(18) كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 43 . والمقصود ببغض ما كان منها منافيا للمقصود من الوجود، وإلا فصلاح الدنيا لازم لصلاح الدين، قال ابن خلدون: واعلم أن الدنيا كلَّها وأحوالها مطيةٌ للآخرة، ومَن فقدَ المطيةَ فقدَ الوصول. (المقدمة: 253)، وقال الغزالي: مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة، ومنزلا لمن يتخذها مستقرا ووطنا، وليس ينتظم

وقال طاشكُبْرِي زاده: موضوعُ هذا العلم: المَلَكات النفسانيةُ من حيث تعديلُها بين الإفراط والتفريط. قال الحكماء للإسكندر: أيها الملك، عليك بالاعتدال في كل الأمور، فإنَّ الزيادة عيبٌ، والنقصان عجز(19).

أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين. (الإحياء: 1/ 12) ولهذا قال ابن تيمية: لا يُتصور شرعٌ فيه صلاحُ الآخرة دون الدنيا، فإن الآخرة لا تقوم إلا بأعمالٍ في الدنيا مستلزمةٍ لصلاح الدنيا، وصلاحُها غيرُ التناوُل لفضولها. (جامع المسائل: 6/ 151) قلت: وقوله (وصلاحها غير التناول لفضولها) كأنه يدفع به ما قد يُتوهم من المنافاة بين ما قرره وبين ما تواتر في الشرع من التزهيد في الدنيا، وقد بين الغزالي في كتاب "الاقتصاد" هذا الأمرَ أحسنَ بيان، فقال في باب الإمامة منه ما نصُّه: إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا... فإن قيل: لِمَ قلتم: إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، بل لا يحصل إلا بخراب الدنيا، فإن الدين والدنيا ضدان، والاشتغال بعمارة أحدهما خرابُ الآخر، قلنا: هذا كلامُ مَن لا يفهم ما نريده بالدنيا الآن، فإنه لفظٌ مشترك قد يطلق على فضولِ التنعُّم والتلذذ والزيادة على الحاجة والضرورة، وقد يطلق على جميع ما هو محتاجٌ إليه قبل الموت، وأحدهما ضدُّ الدين، والآخر شرطُه، وهكذا يَغْلِط مَن لا يميز بين معاني الألفاظ المشتركة. فنقول: نظام الدين بالمعرفة والعبادة، ولا يُتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قَدْر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن من هواجم الآفات، ولعمري مَن أصبح آمنا في سربه، معافًى في بدنه، وله قوتُ يومه، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها، وليس يأمن الإنسانُ على روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته في جميع الأحوال بل في بعضها، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميعُ أوقاته مستغرَقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة، فإذن بانَ أن نظام الدنيا، أعني مقاديرَ الحاجة، شرطٌ لنظام الدين. (الاقتصاد في الاعتقاد: 291 – 292)

(19) مفتاح السعادة: 1/ 383 – 384

[3]

الغاية والفائدة

غرض هذا العلم: التقربُ والوصول إلى الله تعالى(20).

وقال الغزالي في "الإحياء" : ثمرةُ هذا العلم: طِبُّ القلوب والأرواح، المتوصَّلُ به إلى حياةٍ تدوم أبدَ الآباد، فأين منه الطبُّ الذي يُعالَج به الأجساد، وهي مُعَرَّضَةٌ بالضرورة للفساد في أقرب الآماد(21).

قال ابن الجوزي في "المنتخب" : أدواء القلوب تفتقر إلى أدويةٍ كما تحتاج أمراضُ البدن إلى معالجة(22).

وقال ابن تيمية: المرض في القلب كالمرض في الجسد، فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرضٌ يُحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب(23).

قال ابن رشد: نسبةُ الطبيب إلى صحة الأبدان نسبةُ الشارع إلى صحة الأنفُس، أعني أنَّ الطبيب هو الذي يَطلُب أنْ يَحفظ صحةَ الأبدان إذا وُجدت، ويستردها إذا عُدِمت، والشارعُ هو الذي يبتغي هذا في صحه الأنفس، وهذه الصحة هي المسماة "تقوى".

وقد صرح الكتاب العزيز بطلبها بالأفعال الشرعية في غير ما آية، فقال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وقال تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا

(20) كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 43

(21) إحياء علوم الدين: 1/ 4

(22) أبجد العلوم: 1/ 532

(23) مجموع الفتاوى: 28/ 448

وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}، وقال: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، إلى غير ذلك من الآيات التي تَضمَّنَها الكتابُ العزيز من هذا المعنى.

فالشارع إنما يَطلب بالعلم الشرعي هذه الصحة، وهذه الصحةُ هي التي تترتب عليها السعادةُ الأخروية، وعلى ضدها الشقاءُ الأخروي(24).

ولهذا قال الغزالي: التقوى ثمرةُ العلم الباطني(25).

وابن رشد ملتفتٌ إلى السعادة الأخروية، لأنها المقصودُ الأعظم، وإلا فسعادة الدنيا أيضا من ثمار تقوى الله تعالى، وقد قال طاشكُبْرِي زاده: ومنفعتُه (يعني علم الأخلاق) أن يكون الإنسانُ كاملا في أفعاله بحسب الإمكان، ليكون في أُولاه سعيدا وأخراه حميدا(26).

فمن اتقى الله فاز بسعادة الدارين!

قال ابن القيم: واللهُ تعالى إنما جعل الحياةَ الطيبة لمن آمن به وعَمِل صالحا، كما قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فضَمِن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاءَ في الدنيا بالحياة الطيبة وبالحسنى يوم القيامة، فلهم أطيبُ الحياتين، وهم أحياء في الدارين. ونظيرُ هذا قولُه تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}، ونظيرها قوله تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}.

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصَلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإنَّ طيب النفس وسرورَ القلب وفرحَه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة= هو النعيمُ على الحقيقة، ولا نسبةَ لنعيم البدن إليه، فقد كان يقول بعضُ من ذاق هذه اللذة: لو عَلِم الملوكُ وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

---

(24) فصل المقال: 61 – 62

(25) الإحياء: 1/ 32

(26) مفتاح السعادة: 1/ 384

وقال آخر: إنه لَيَمُرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إن في الدنيا جنةً(27)، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة(28).

وقد أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هذه الجنة بقوله: "إذا مررتم برياض الجنة فارتَعوا". قالوا: وما رياضُ الجنة؟ قال: "حِلَق الذكر"(29). وقال: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة"(30).

ولا تظُنَّ أنَّ قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} مختصٌّ بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دُورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة(31).

---

(27) وقد قال بعض العارفين في قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} : جنةٌ في الدنيا وجنة في العقبى. (مرقاة المفاتيح: 2/ 560)

(28) قال في "المدارج" : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. (مدارج السالكين: 1/ 452)

(29) رواه الترمذي عن أبي هريرة وعن أنس، وحسن الألباني حديث أنس.

وفي "تاج العروس" : رَتَع، كمَنع، رتعا، ورتوعا، ورتاعا، بالكسر، وهذه عن ابن الأعرابي: أكل وشرب، وذهب وجاء ما شاء، وأصل الرَّتْع للبهائم، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكلُ الكثير، كما حققه الأصبهاني في المفردات، والزمخشري في الأساس، ونقله المصنِّف (يعني الفيروزآبادي) في البصائر، وإليه أشار الجوهري حيث قال في أول المادة: رتعت الماشية ترتع رتوعا، أي: أكلت ما شاءت، زاد غيره: وجاءت وذهبت في المرعى نهارا، ولا يكون الرتع إلا في خَصْبٍ وسَعَة. أو هو الأكل والشرب رغدا في الريف، وهذا قول الليث، وهو مجاز أيضا. أو الرتع والرتوع والرتاع: الأكل بشَرَه، وهذا قول ابن الأعرابي، وهو مجاز، وفي الحديث: "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا"، أراد برياض الجنة ذكر الله، وشَبَّه الخوضَ فيه بالرَّتْع في الخَصْب اهـ.

(30) متفق عليه.

(31) إذ مِن عقوبات الذنوب: المعيشةُ الضنك في الدنيا وفي البرزخ، والعذابُ في الآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}، قال ابن القيم: وفُسِّرت المعيشةُ الضنك بعذاب

وأيُّ لذةٍ ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟

وقد أثنى الله تعالى على خليله بسلامة قلبه فقال: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، وقال حاكيا عنه أنه قال: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

والقلب السليم: هو الذي سَلِم من الشرك، والغل، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرياسة. فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله. فهذا القلب السليم في جنةٍ معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنة يوم المعاد.

القبر، ولا ريبَ أنه من المعيشة الضنك، والآيةُ تتناول ما هو أعمُّ منه، وإن كانت نكرةً في سياق الإثبات، فإنَّ عمومَها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتَّبَ المعيشةَ الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمُعْرِض عنه له مِن ضنكِ المعيشة بحسب إعراضه، وإنْ تنعم في الدنيا بأصناف النعيم، ففي قلبه من الوَحْشة والذل والحسرات التي تُقَطِّع القلوبَ والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يُواريه عنه سُكْرُ الشهوات والعشقُ وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر! فسكر هذه الأمور أعظمُ من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبُه إلا إذا صار في عسكر الأموات. فالمعيشة الضنك لازمةٌ لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله – صلى الله عليه وسلم – في دنياه، وفي البرزخ، ويوم معاده. ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكلُّ معبودٍ سواه باطل، فمن قرَّتْ عينُه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسُه على الدنيا حسرات. (الداء والدواء: 278 – 280)

ولهذا قال: من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه، عاقبه بنقيض قصده، فإنَّ ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيتَه سببا إلى خيرٍ قط، ولو علِم الفاجرُ ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش، لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعافُ أضعافِ ما حصل له، دَعْ رِبْحَ العاقبة والفوزَ بثواب الله وكرامته. (روضة المحبين: 362)

ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يَسْلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوًى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حُجُب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواعٌ كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر(32).

(32) الداء والدواء: 280 – 283

[4]

الفضل والشرف

والغاية جهةٌ من جهات الشرف كما هو معلوم، فالشيء يشرف لشرف غايته، وقد عرفت غايتَه.

ثم يظهر شرف علم القلب أيضا من جهة كون القلب هو الأصل لأعمال الجوارح، وهي الفرع والتبع.

قال الغزالي: مصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفاتُ القلوب(33)، فالمحمودُ من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصالُ الجوارح بالقلب(34).

وقال ابن القيم: مَن تأمل الشريعةَ في مصادرها ومواردها، عَلِم ارتباطَ أعمالِ الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح(35).

وقال العز ابن عبد السلام: صلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مُضْغَة، إذا

(33) قال الدهلوي: مِن جِبِلَّة الإنسان أنه إذا استقر في قلبه شيء جرى حسب ذلك الأركانُ واللسان، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إن في جسد ابن آدم مضغة" الحديث. (حجة الله البالغة: 2/ 8)

وقال الرافعي: ما أشبه القلبَ تتفرع منه معاني الخُلُق، بالحبة تنسرح منها الشجرة، فخُذْ نفسَك مِن قلبك كما شئت، حُلوًا من حلو، ومرًّا من مر. (وحي القلم: 1/ 217)

(34) الإحياء: 1/ 19

(35) بدائع الفوائد 3/ 710 . وقال ابن الجوزي: عمل القلب أفضلُ من عمل الجوارح. (تلبيس إبليس: 121)

وقال الزركشي: العمل ينقسم إلى قلبي وبدني، والقلبي أفضل. (المنثور في القواعد: 2/ 422)

صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"، أي: إذا صلحت بالمعارف ومحاسن الأحوال والأعمال، صلح الجسد كلُّه بالطاعة والإذعان، وإذا فسدت بالجهالات ومساوئ الأحوال والأعمال، فسد الجسد كلُّه بالفسوق والعصيان(36).

وقال ابن تيمية: الأعمال الظاهرة لا تكون صالحةً مقبولة إلا بتوسُّط عملِ القلب، فإن القلب مَلِك، والأعضاء جنوده، فإذا خَبُث الملك خبثت جنوده، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله"(37).

وقال ابن القيم: لما كان القلب لهذه الأعضاء كالمَلِك المتصرِّفِ في الجنود الذي تصدر كلُّها عن أمره ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامةَ والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يَحُله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله"، فهو ملِكُها وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلةُ لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلِّها، لأن كل راع مسئول عن رعيته= كان الاهتمامُ بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظرُ في أمراضه وعلاجها أهمَّ ما تنسك به الناسكون(38).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"، وأشار بأصابعه إلى صدره. رواه مسلم.

قال ابن عَلَّان: في الحديث الاعتناءُ بحال القلب وصفاته بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن كل وصف مذموم، وتحليته بكل نعتٍ محمود، فإنه لما كان القلبُ محلَّ نظرِ الرب، حُقَّ على العالِمِ بقدر اطلاع الله تعالى على قلبه أن يفتش عن صفات قلبه وأحواله، لإمكان أنْ

---

(36) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: 1/ 197 – 198

(37) مجموع الفتاوى: 11/ 381

(38) إغاثة اللهفان: 1/ 5

يكون فيه وصفٌ مذمومٌ يمقته الله بسببه(39).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: كلُّ مَخْمُومِ القلب صدوقِ اللسان، قالوا: صدوقُ اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي لا إثمَ فيه ولا بَغْيَ ولا غِلَّ ولا حسد. رواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

قال المُلَّا علي القاري: (كل مخموم القلب) بالخاء المعجمة، أي: سليم القلب، لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، مِن خممتُ البيتَ إذا كَنَسْتَه، على ما في القاموس وغيره، فالمعنى أن يكون قلبُه مكنوسا من غبار الأغيار، ومنظَّفا من أخلاق الأقذار(40).

كما يشهد لفضل هذا العلم ما جاء في فضل التحلي بحَسَن الأخلاق والتخلي عن ذميمها، وهو أمرٌ عظيم جليل في الشريعة.

قال الحافظ ابن رجب في شرح حديث معاذ بن جبل عند الترمذي: "اتقِ اللهَ حيثما كنت، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُق حسن" : قولُه صلى الله عليه وسلم: "وخالق الناس بخلق حسن" هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه(41)، فإن كثيرا من الناس يظن أن التقوى هي القيامُ بحق الله دون حقوق عباده(42)، فنَصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلِّما لهم ومفقها وقاضيا، ومن كان كذلك، فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره مما لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرا

---

(39) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: 1/ 73

(40) مرقاة المفاتيح: 8/ 3267 – 3268

(41) قال ابن القيم: فائدة جليلة: جَمَعَ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلى محبته. (الفوائد: 54)

(42) ومثل ذلك ما يُظن في الصلاح، وقد قال الإمام النووي: أما حَدُّ الصالح، فقال الإمام أبو إسحاق الزجاج في كتابه معاني القرآن وأبو إسحاق بن قُرْقُول صاحب مطالع الأنوار: هو المقيم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد. (بستان العارفين: 66)

ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله والانعكاف على محبته وخشيته وطاعتِه إهمالُ حقوق العباد بالكلية أو التقصيرُ فيها، والجمعُ بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيزٌ جدا، لا يقوى عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصديقين. وقال الحارث المحاسبي: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة. وقال بعض السلف: جلس داود عليه السلام خاليا، فقال الله عز وجل: مالي أراك خاليا؟ قال: هجرت الناسَ فيك يا ربَّ العالمين، قال: يا داود ألا أدلك على ما تستبقي به وجوهَ الناس، وتبلغ فيه رضاي؟ خالِقِ الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان بيني وبينك. وقد عَدَّ الله في كتابه مخالقةَ الناس بخلق حسن من خصال التقوى، بل بدأ بذلك في قوله: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سعيد المَقْبُرِي قال: بلغنا أن رجلا جاء إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، فقال: يا معلم الخير، كيف أكون تقيا لله عز وجل كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمر: تحب الله بقلبك كلِّه، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت، وترحم ابنَ جنسِك كما ترحم نفسَك، قال: مَن ابنُ جنسي يا معلم الخير؟ قال: ولد آدم كلُّهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك، فلا تَأتِه لأحد وأنت تتقي لله عز وجل كما ينبغي له. وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم حسن الخلق أكمل خصال الإيمان، كما خرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"، وخرجه محمد بن نصر المروزي، وزاد فيه: "إن المرء لَيكون مؤمنا وإنَّ في خلقه شيئا فينقص ذلك من إيمانه". وخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك قال: "قالوا يا رسول الله: ما أفضلُ ما أعطيَ المرءُ المسلم؟ قال: الخلق الحسن". وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن صاحب الخلق الحسن يبلغ بخلقه درجةَ الصائم القائم لئلا يشتغل المريدُ للتقوى عن حسن الخلق بالصوم والصلاة، ويظن أن ذلك يقطعه عن فضلهما، فخرَّج الإمام أحمد وأبو داود من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات الصائم والقائم". وأخبر أن حسن الخلق أثقلُ ما يوضع في الميزان، وأن صاحبه أحبُّ الناس إلى الله وأقربُهم من النبيين مجلسا،

فخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من شيء يوضع في ميزان العبد أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة". وخرج ابن حبان في "صحيحه" من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟ قالوا: بلى، قال: أحسنكم خلقا". وقد سبق حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أكثر ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق". وخرج أبو داود من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حَسَّن خُلُقَه"، وخرجه الترمذي وابن ماجه بمعناه من حديث أنس(43).

(43) جامع العلوم والحكم: 1/ 454 - 456

[5]

الاسم

(1) – تقدمت تسمية هذا العلم بـ(**علم السلوك**)، وهو "علمُ سلوكِ الطريق إلى الله" كما قال الغزالي(44).

(2) – ويسمى (**علم التزكية**)(45).

قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}، وفي حديث مسلم: "اللهم آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زكاها، أنت وليُّها ومولاها".

قال ابن عاشور: التزكية: تطهير النفس، مشتقة من الزكاة وهي النماء، وذلك لأن في أصل خِلْقة النفوس كمالاتٍ وطهارات(46) تعترضها أرجاسٌ ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيبُ النفوس وتقويمُها يزيدها من ذلك الخير المودَع فيها(47).

---

(44) إحياء علوم الدين: 3/ 394

(45) تحفة الأبرار للبيضاوي: 1/ 8

(46) وهذا فيه الإشارةُ إلى تأصُّل الخير واعتدالِ الفطرة، قال الغزالي: مثالُ النفس في علاجها بمَحْوِ الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها: مثالُ البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه، وكما أنَّ الغالبَ على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدةَ المضرةُ بعوارضِ الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كلُّ مولودٍ يولد معتدِلًا صحيحَ الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمَجِّسانه، أي: بالاعتياد والتعليم تُكتسَب الرذائلُ، وكما أن البدن في الابتداء لا يُخلق كاملا، وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلةً للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. (الإحياء: 3/ 60 – 61)

ولهذا لما عَرَض القاضي عياض في "الشفا" لمحاسن الأخلاق ومكارمها قال: وقد يكون مِن هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجِبِلَّة لبعض الناس، وبعضُهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لابد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجِبِلَّة

(3) – كما يسمى (**علم القلب**)(48).

قال النووي: علم القلب هو معرفة أمراض القلب، كالحسد والعجب وشبههما(49).

(4) – ويسمى أيضا (**علم المعاملة**)(50).

قال الغزالي: علم المعاملة هو علم أحوال القلب(51).

(5) – ويسمى (**علم طريق الآخرة**).

قال الغزالي في "الإحياء" : فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا، فقد أصبح مِن بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا(52).

شُعْبةٌ. قال علي القاري: أي: شائبةٌ وقطعةٌ خُلِق عليها لِيَرْجِع فيما يكتسبه إليها بميل طَبْعِه الأولِ فيها. (شرح الشفا لعلي القاري: 1/ 152 . وفي آخر هذه المقدمة عطفٌ على مسألة اكتساب الأخلاق وتبدُّلها)

وقال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} –: تفيد الآية أنَّ الإنسانَ مفطورٌ على الخير، وأنَّ في جِبِلَّتِه جلبَ النفع والصلاحِ لنفسه وكراهة ما يظنه باطلا أو هلاكا، ومحبةَ الخير والحسن من الأفعال، لذلك تراه يُسَرُّ بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبةً لخير غيره، ويُغيث الملهوفَ ويُعامِل بالحسنى، ويغار على المستضعفين، ويشمئز من الظلم ما دام مجردا عن رَوْمِ نفعٍ يجلبه لنفسه أو إرضاءِ شهوةٍ يريد قضاءَها أو إشفاءِ غضبٍ يجيش بصدره، تلك العوارض التي تحول بينه وبين فطرته زمنا، ويَهَشُّ إلى كلام الوُعَّاظ والحكماء والصالحين ويكرمهم ويعظمهم ويَوَدُّ طولَ بقائهم. فإذا ساورته الشهوةُ السيئة فزينت له ارتكابَ المفاسد ولم يستطع ردَّها عن نفسه انصرف إلى سوء الأعمال، وثَقُل عليه نُصْحُ الناصحين، ووعظُ الواعظين على مراتبَ في كراهية ذلك بمقدار تحكُّمِ الهوى في عقله. ولهذا كان الأصلُ في الناس الخير والعدالة والرشد وحسن النية عند جمهورٍ من الفقهاء والمحدثين. (التحرير والتنوير: 30/ 426 – 427)

(47) التحرير والتنوير: 2/ 49

(48) إحياء علوم الدين: 3/ 394 ، والدر المختار مع حاشية ابن عابدين: 1/ 43

(49) المجموع للنووي: 1/ 26

(50) كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 42 ، وأبجد العلوم: 1/ 506

(51) إحياء علوم الدين: 1/ 20

(52) السابق: 1/ 2

هذا قديما، وحديثا يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: ومن العلم العزيز النادر الذي يغفُل عنه الكثيرون مع دلالة القرآن عليه وتصريحه به والدعوة اليه، **علم طريق الآخرة** الذي يُهَيِّج القلبَ ويزعجه ويدفعه إلى سلوكه، ويُشعر صاحبَه بغربته في الدنيا وقُرْبِ رحيله عنها إلى سفرٍ بعيد لا يرجع بعده إلى دنياه ولا ينفع فيه زادٌ إلا التقوى، ولذلك فهو دائما مشغول بإعداد هذا الزاد {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}، متطلع إلى ما هناك، إلى ما يؤول إليه أمره بعد سفره البعيد، أيكون مصيره إلى نار جهنم، وفي ذلك شقاؤه العظيم، أم يكون مصيره في دار النعيم بجوار الرب الكريم؟ إنه لهذه العاقبة المجهولة، يكون دائما بين الخوف والرجاء، ولكنه خوفُ العارف لا الجاهل، ورجاء العامل لا الخامل... إنَّ هذا العلمَ هو الذي قَلَّ وجودُه بين الناس وبين طلاب العلم، وبدونه لا يعتبر العالم عالما وإنْ حَفِظ الشروحَ والمتون والأحكام، وملأ رأسَه منها وردَّدها على لسانه.. إنَّ هذا العلمَ هو لُبُّ العلم وغايتُه، وكل مسلم محتاج إليه، والعالِمُ أشد حاجةً إليه، والداعي أحوجُ من الجميع إليه(53).

(6) **و(7)** – ويقال له أيضا **(علم الباطن)**، و**(علم الحقيقة)**.

ذكر الغزالي "علم الباطن" وقال: أعني علمَ القلب وتطهيرِه عن الأخلاق الذميمة(54).

وقال عز الدين بن عبد السلام في كتابه "حل الرموز ومفاتيح الكنوز" : الطريقة إلى الله لها ظاهر (أي: عمل ظاهر أي: بدني) وباطن (أي: عمل قلبي)، فظاهرها الشريعة، وباطنها الحقيقة، والمراد من الشريعة والحقيقة: إقامة العبودية على الوجه المراد من المكلَّف. ويجمع الشريعةَ والحقيقة كلمتان هما قولُه: إياك نعبد وإياك نستعين، فإياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة. اهـ(55).

وقال في كتابه "قواعد الأحكام" : الطريقُ في إصلاحِ القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها وتفسد بفسادها: تطهيرُها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه ويزلفه لديه من

---

(53) أصول الدعوة: 327 – 328

(54) المستصفى: 6

(55) نقله ابن عاشور في التحرير والتنوير: 1/ 134

الأحوال والأقوال والأعمال وحسن الآمال ولزوم الإقبال عليه والإصغاء إليه والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات وحال من الأحوال على حسب الإمكان من غير أداءٍ إلى السآمة والملال، ومعرفةُ ذلك هي الملقبة بـ**"علم الحقيقة"**.

وليست الحقيقةُ خارجةً عن الشريعة، بل الشريعةُ طافحةٌ بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفةُ أحكام الظواهر معرفة لجُلِّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدِقِّ الشريعة، ولا ينكر شيئا منهما إلا كافر أو فاجر.

وقد يتشبه بالقوم مَن ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شرٌّ من قُطَّاع الطريق، لأنهم يقطعون طرقَ الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلماتٍ قبيحات يطلقونها على الله، ويسيئون الأدبَ على الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء من العلماء الأتقياء، وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء، لعلمهم بأنَّ الفقهاء ينهون عن صحبتهم وعن سلوك طريقهم(56).

وقال ابن رجب الحنبلي: وكثير ممن يدعي العلم الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر، الذي هو الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، ويطعن في أهله ويقولون: هم محجوبون وأصحاب قشور، وهذا يوجب القدحَ في الشريعة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسلُ بالحث عليها والاعتناء بها.

وربما انحل بعضُهم عن التكاليف، وادعى أنها للعامة، وأما مَن وصل فلا حاجةَ له إليها، وأنها حجابٌ له، وهؤلاء كما قال الجنيد وغيرُه من العارفين: وصلوا، ولكن إلى سَقَرَ.

وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يُتَلَقَّى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة، وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات، فأساؤوا الظن بالشريعة الكاملة، حيث ظنوا أنها لم تأت

---

(56) قواعد الأحكام: 2/ 212 – 213 ، ولابن تيمية بسط كلام مفيد مهم في هذا، تراه في بيان تلبيس الجهمية: 2/ 167 – 187 ، وقد ذكر ابن عبد الهادي أن له قاعدة في أن الشريعة والحقيقة متلازمان. انظر: العقود الدرية: 56 .

بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاحَ القلوب وقربها من عَلَّام الغيوب، وأوجب لهم الإعراضَ عما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذا الباب بالكلية، والتكلُّمَ فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضَلُّوا وأضلوا.

فظهر بهذا أنَّ أكملَ العلماء وأفضلَهم: العلماءُ بالله وبأمره، الذين جمعوا بين العلمين، وتلقوهما معًا من الوحيين –أعني: الكتاب والسنة– ، وعرضوا كلامَ الناس في العلمين معًا على ما جاء في الكتاب والسنة، فما وافق قَبِلوه، وما خالف رَدُّوه.

وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل، وهم خلفاء الرسل حقًّا، وهؤلاء كثير في الصحابة، كالخلفاء الأربعة، ومعاذ، وأبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم. وكذلك فيمن بعدهم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والنخعي، ويحيى بن أبي كثير. وفيمن بعدهم كالثوري، والأوزاعي، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين(57).

(8) **و**(9) – وقد سبقت الإشارة إلى تسميته بـ**(علم الأخلاق)**، كما يسمى بـ**(علم التصوف)**، قال التهانوي بعد تعريف علم السلوك: ويسمى بعلم الأخلاق، وبعلم التصوف أيضا(58).

وقد قال الجُنَيْدُ: التصوف: استعمالُ كلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ، وتركُ كلِّ خلقٍ دَنِيٍّ(59).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا القاسم العباس بن محمد بن العباس الخلال بمرو يقول: سمعت جعفر الخلدي يقول: سمعت الجنيد – وسئل عن التصوف – يقول: العلو إلى كل خُلُق شريف، والعدول عن كل خلق دنيء، فسأله السائل فقال: ما تقول أنت؟ فقال: مِثْلَ قولِه(60).

---

(57) مجموع رسائل ابن رجب: 1/ 20 – 21

(58) كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 42

(59) معيد النعم لابن السبكي: 119 – 120

(60) طبقات الصوفية للسلمي: 327 – 328

وسئل أبو الحسين النوري عن التصوف، فقال: ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنها أخلاق(61).

وسئل مظفر القِرْمِيسِيني عن التصوف فقال: الأخلاق المرضية(62).

وقال أبو سعيد الخراز: التصوف خلق وليس إنابة، وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء.

وابن عطاء هو أبو العباس بن عطاء الأدمي، والكلام في ترجمته(63).

وكان تقي الدين السبكي يقول: الصوفي: من لَزِمَ الصِّدْقَ مع الحَقِّ والخُلُق مع الخَلْق(64).

وقال ابن القيم: الدين كلُّه خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين. وكذلك التصوف، قال الكتاني(65): التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف(66).

قال الذهبي: إنما التصوفُ والتألُّهُ والسلوك والسَّيْرُ والمحبة: ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من الرضا عن الله، ولزوم تقوى الله، والجهادِ في سبيل الله، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبر، والقيام بخشية وخشوع، وصومِ وقتٍ، وإفطار وقت، وبذل المعروف، وكثرة الإيثار، وتعليم العوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزز على الكافرين، ومع هذا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(61) السابق: 137

(62) السابق: 298

(63) السابق: 207

(64) معيد النعم ومبيد النقم لولده تاج الدين السبكي: 120

(65) محمد بن علي بن جعفر الكتاني، وكنيته أبو بكر، أصلُه من بغداد، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسين النوري، وأقام بمكة مجاورا بها إلى أن مات، قال أبو عبد الرحمن السلمي: وكان أحدَ الأئمة، حكي عن أبي محمد المرتعش أنه كان يقول: الكتاني سراج الحرم، مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة . (طبقات الصوفية للسلمي: 282 – 283)

(66) مدارج السالكين: 2/ 294

والعالِمِ إذا عَرِي من التصوف والتأله فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا عري من عِلْمِ السنة زلَّ عن سواء السبيل(67).

(67) سير أعلام النبلاء: 15/ 410

[6]

الحكم الشرعي

قال النووي: أما علم القلب، وهو معرفة أمراض القلب كالحسد والعجب وشِبههما، فقال الغزالي: معرفةُ حدودها وأسبابها وطِبِّها وعلاجها فرضُ عين، وقال غيرُه: إنْ رُزِق المكلَّفُ قلبًا سليما من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك، ولا يلزمه تعلُّمُ دوائها، وإنْ لم يَسْلَمْ نَظَر، إنْ تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلُّمٍ، لزمه التطهير، كما يلزمه تركُ الزنا ونحوِه من غير تعلمِ أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلُّم العلم المذكور تعيَّن حينئذ، والله أعلم(68).

قلت: وحجة أبي حامد الغزالي أنَّ السلامة بعيدةُ المنال، وأن هذه الأدواء قلما ينفك عنها الإنسان، ودفعُها متوقف على معرفة حقائقها وطرق الخلاص منها، وهذا حاصلُ علمِ القلب.

قال رحمه الله: فإذا كان الغالب أنَّ الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسَه محتاجا إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوًى مُتَّبَع، وإعجابُ المرء بنفسه"(69)، ولا ينفك عنها بَشَر، وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكِبْر والعُجْب وأخواتها تتبع هذه الثلاثَ المهلكات، وإزالتُها فرضُ عين، ولا يمكن إزالتُها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها، فإنَّ من لا يعرف الشر يقع فيه، والعلاجُ هو مقابلة السبب

(68) مقدمة المجموع: 1/ 26

(69) قطعة من حديث رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر، وحسنه الألباني.

بضده، وكيف يُمكن دون معرفة السبب والمسبَّب، وأكثرُ ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناسُ كافةً اشتغالا بما لا يعني(70).

ثم ينبغي أن يكون حكمُ عِلْم أعمال القلوب تابعًا لحكم أعمال القلوب، وقد تقدم أنها آكَدُ وأهمُّ وأَفْرَضُ من أعمال الجوارج، وقد قال ابن تيمية في صدر "التحفة العراقية" : هذه كلماتٌ مختصرات في أعمال القلوب التي قد تسمى المقاماتِ والأحوالَ، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك... فأقول: هذه الأعمالُ جميعُها واجبةٌ على جميع الخلق المأمورين فى الأصل باتفاق أئمة الدين(71).

فلَزِم أن يكون علمُها آكَدَ من علم أعمال الجوارح، وقد صرح بذلك ابن القيم حيث قال: معرفةُ أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح، إذ هي أصلُها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها(72).

ثم واجباتُ أعمال القلوب كثيرا ما يكون العلمُ بها على ما ينبغي متوقفا على معرفة ضدِّها وما ينافيها، كما قال أبو عثمان المغربي: لا يَعرف الشيءَ من لا يعرف ضدَّه، لذلك لا يصح لمُخْلِصٍ إخلاصُه إلا بعد معرفته الرياءَ ومفارقتَه له(73).

ثم كيف يتوكل مَن لا يعرف التوكل؟ وكيف يُخلِص من لا يعرف الإخلاص؟ وكيف يتقي من لا يعرف ما يتقي؟ قال ابن رجب: وأصل التقوى: أنْ يَعْلَم العبدُ ما يتقي ثم يتقي، قال عون بن

---

(70) إحياء علوم الدين: 1/ 15 ، وانظر: حاشية ابن عابدين على الدر المختار: 1/ 43

(71) التحفة العراقية: 37

(72) بدائع الفوائد: 3/ 1140

(73) طبقات الصوفية للسلمي: 359

عبد الله: تمام التقوى أن تبتغي عِلْمَ ما لم يُعلم منها إلى ما عُلِم منها. وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خُنَيس، قال: كيف يكون متقيا مَن لا يدري ما يتقي؟(74).

وقد رأيت تنصيصَ الغزالي على أنَّ إزالة مِثل الكِبْرِ والعُجْب فرضُ عين، وأن الإزالة متوقفة على العلم بحقيقة ما يزال، واللهُ تعالى يقول: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في "تفسيره" : المراد بالإثم: جميعُ المعاصي التي تُؤَثِّم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فنهى اللهُ عبادَه عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد تركُ المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحثُ عنها ومعرفةُ معاصي القلب والبدن والعلمُ بذلك واجبًا متعيِّنا على المكلَّف، وكثير من الناس تخفى عليه كثيرٌ من المعاصي، خصوصا معاصي القلب،كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثيرٌ منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة(75).

---

(74) جامع العلوم والحكم: 1/ 402

(75) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: 271

[تذييل]

قال ابن القيم: حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يُتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكَظْمِ الغيظ، وكف الأذى، والحِلْم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحش، والبخل والكذب، والغِيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلى البذل والنَّدى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحِلْم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يُمسك عِنانَها، ويَكْبَحُها بلِجامها عن التسرع والبَطْش، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الشديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديد: الذي يَملِك نفسَه عند الغضب"(76)، وهذه حقيقة الشجاعة، وهي مَلَكةٌ يقتدر بها العبدُ على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسُّطِه فيها بين طرَفَي الإفراط والتفريط، فيحمله على خُلُق الجود والسَّخاء الذي هو توسُّطٌ بين الذل والقِحَة(77)، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجُبْن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمَهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

---

(76) متفق عليه.

(77) الوَقاحة بالفتح: قلة الحياء، وقد وَقُحَ بالضم وَقاحةً وقِحَةً بكسر القاف، فهو وَقِح. (المصباح)

فالجهل: يريه الحَسَنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن، والكمال نقصا، والنقص كمالا(78).

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويعجل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويُحجِم في موضع الإقدام، ويُقدِم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللِّين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحِرْص والشُّح والبخل، وعدم العفة، والنَّهْمة والجَشَع، والذل والدناءات كلِّها.

والغضب: يحمله على الكِبْر والحقد والحسد، والعدوان والسَّفَه.

ويتركب من بين كل خُلُقَين من هذه: أخلاقٌ مذمومة.

ومِلاكُ هذه الأربعة أصلان: إفراطُ النفس في الضعف، وإفراطها في القوة.

فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخِسَّة واللُّؤم، والذل والحرص، والشح وسَفْساف الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحِدَّة، والفُحْش والطيش.

ويتولد مِن تزوج أحد الخُلُقين بالآخر أولادُ غَيَّةٍ(79) كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفا، فيكون صاحبها أجبرَ الناس إذا قَدَر، وأذلَّهم إذا قُهِر، ظالم عسوف جبار، فإذا قُهِر صار أذلَّ من امرأة، جبان عن القوي، جريء على الضعيف.

فالأخلاق الذميمة يُولِّد بعضُها بعضا، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضا.

---

(78) يقال: هو وَلَدُ غَيَّةٍ، بالفتح، ويكسر، وهو قليل، أي: ولدُ زَنْيَةٍ، كما يقال في نقيضه: ولد رَشْدَة. (تاج العروس)

(79) قال القرافي: أصلُ كلِّ فسادٍ في الدنيا والآخرة إنما هو الجهل، فاجتهِدْ في إزالته عنك ما استطعت، كما أن أصل كل خير في الدنيا والآخرة إنما هو العلم، فاجتهد في تحصيله ما استطعت، واللهُ تعالى هو المعين على الخير. (الفروق: 4/ 265)

وكل خُلُق محمود مُكْتَنَفٌ بخُلُقَين ذميمين، وهو وَسَطٌ بينهما(80)، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خُلُقا البخل والتبذير، والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو. فإنَّ النفسَ متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخُلُقَين الذميمين ولا بد، فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت: إما إلى كِبْرٍ وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحَقارة، وإذا انحرفت عن خلق الحياء انحرفت: إما إلى قِحَة وجُرأة، وإما إلى عجز وخَوَر ومهانة، بحيث يُطْمِع في نفسه عدوَّه، ويَفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت: إما إلى جَزَع وهَلَع وجَشَع وتَسَخُّط، وإما إلى غِلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجُّر طبع، كما قال بعضهم:

يُبكَى علينا ولا نبكي على أحد ... فنحن أغلظ أكبادا من الإبل

---

(80) قال ابن عاشور: قد اتفق أساطينُ حكمائنا الذين عنوا بتوصيف أحوال النفوس والعقول، فاضِلِها ودَنِيِّها وانتسابِ بعضِها من بعض، على أنَّ قوام الصفات الفاضلة هو الاعتدال، أي: التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، لأن ذينك الطرفين يدعو إليهما الهوى الذي حذَّرَنا اللهُ منه في مواضعَ كثيرة، منها قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وقوله: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}، وقوله: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}، فإن ذلك متعلق بأهل الكتاب ابتداءً، ومرادٌ منه موعظةُ هذه الأمة، لتَجتنِب الأسبابَ التي أوجبتْ غضبَ الله على الأمم السابقة وسقوطَها. وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في اليهود: "لو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم". فالتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط هو منبع الكمالات. وقد قال الله تعالى في وصف هذه الأمة أو وصف صدرها: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}. روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في معنى الآية أنَّ الوسط هو العدل، أي: بين طرفي الإفراط والتفريط، وبذلك جزم المحققون في تفسير هذه الآية. وبه فُسِّر أيضا قولُه تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ} أي: أعلمهم وأعدلهم. وقد شاع هذا المعنى في الوسط. وقال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير التابعي: "خير الأمور أوساطها". وبعضُهم يرويه حديثا، وهو مشهور على الألسنة ولكنه ضعيفُ الإسناد. (مقاصد الشريعة الإسلامية: 188 – 189)

وإذا انحرفت عن خلق الحِلْم انحرفت: إما إلى الطيش والنَّزَق(81) والحِدَّة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة. ففرقٌ بين من حِلْمُه حلمُ ذُلٍّ ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدارٍ ... حجةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ

وإذا انحرفت عن خلق الأَناة والرفق انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفقُ والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت: إما إلى كِبْر، وإما إلى ذل، والعزةُ المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخُّرٍ مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغِبْطة(82) انحرفت: إما إلى حَسَد، وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضًا بالدُّون.

وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت: إما إلى حرص وكَلَب، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعفِ قلبٍ وجُبْنِ نفس، كمن لا يُقدِم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، ولا تأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحمُ الخَلْق صلى الله عليه وسلم بيده في موقفٍ واحد ثلاثا وستين بَدَنة، وقَطَع الأيديَ من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود، ورَجَم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحمَ خَلْق الله على الإطلاق وأرأفَهم.

---

(81) النَّزَق: الخفة والطيش، وقد نَزِق من باب طَرِب. (مختار الصحاح)

(82) الغِبْطة بالكسر: أن تتمنى مثلَ حال المغبوط من غير أن تريدَ زوالَها عنه، وليس بحسد. تقول: غَبَطَه بما نال، مِن باب ضرب، وغِبْطَةً أيضا. (مختار الصحاح)

وكذلك طلاقة الوجه، والبِشْرُ المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد وطَيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهِب الهيبة، ويُزيل الوقار، ويُطْمِع في الجانب، كما أنَّ الانحراف الأول يُوقِع الوَحْشة والبِغْضة، والنُّفْرة في قلوب الخلق. وصاحب الخُلُق الوسط: مَهيب محبوب، عزيزٌ جانبُه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبينا صلى الله عليه وسلم: "من رآه بديهةً هابَه، ومَن خالطه عِشْرَةً أحبَّه"(83)، والله أعلم(84).

(تنبيه) : ما ذكره ابن القيم مِن أنَّ "الشهوة" و"الغضب" من الأركان الأربعة التي هي منشأُ جميع الأخلاق السافلة، لا ينبغي أن يُفهم منه أنَّ المطلوبَ شرعا إعدامُهما، بل المطلوبُ ردُّهما إلى الاعتدال، وإلا فالقلع بالكلية غيرُ ممكن، لأنهما غُرِزا في النفس، وبعضُهم لما رأى أنهما لا يُمكن إزالتُهما بالكلية، بنى عليه أنَّ الأخلاقَ لا تتغير، ولا ريبَ أنَّ فائدة هذا العلم موقوفةٌ على إمكان تَبَدُّل الأخلاق وتغييرها.

وقد قال الغزالي في نقض هذا الوهم: وأما الخيالُ الآخَر الذي استدلوا به (يعني المانعين لتغير الأخلاق) وهو قولهم: إن الآدمي ما دام حيا فلا تنقطع عنه الشهوةُ والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غَلَطٌ وقع لطائفةٍ ظنوا أنَّ المقصودَ من المجاهدة قَمْعُ هذه الصفات بالكلية ومَحْوُها، وهيهاتَ، فإن الشهوة خُلقت لفائدة، وهي ضروريةٌ في الجِبِلَّة، فلو انقطعت شهوةُ الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يَدْفَعِ الإنسانُ عن نفسه ما يُهلكه ولَهَلَك، ومهما بقي أصلُ الشهوة فيبقى لا محالةَ حُبُّ المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال، وليس المطلوبُ إماطةَ ذلك بالكلية، بل المطلوبُ ردُّها إلى الاعتدال الذي هو وَسَطٌ بين الإفراط والتفريط، والمطلوبُ في صفة الغضب حُسْنُ الحَمِيَّة، وذلك بأن يخلوَ عن التهور وعن الجبن جميعا، وبالجملة أن يكون في نفسه قويا، ومع قوته منقادا للعقل، ولذلك قال الله تعالى: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، وَصَفَهم بالشدة، وإنما تصدر الشدة

---

(83) رواه الترمذي، وضعفه الألباني، وحسنه عبد القدر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول (11/ 224).

(84) مدارج السالكين: 3/ 31 – 36 ط عالم الفوائد، و3/ 2189 – 2197 ط الصميعي.

عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد، وكيف يُقصد قلعُ الشهوة والغضبِ بالكلية والأنبياءُ عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر"(85)، وكان إذا تُكُلِّم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وَجْنَتاه، ولكن لا يقول إلا حقا، فكان عليه السلام لا يُخرجه غضبُه عن الحق، وقال تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فرَدُّ الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يَقهر واحدٌ منهما العقلَ ولا يَغلبه، بل يكون العقلُ هو الضابط لهما والغالب عليهما= ممكنٌ، وهو المراد بتغيير الخُلُق، فإنه ربما تستولي الشهوةُ على الإنسان بحيث لا يَقوى عقلُه على دفعها، فيُقدِم على الانبساط إلى الفواحش، وبالرياضة تعود إلى حَدِّ الاعتدال، فدَلَّ أن ذلك ممكن، والتجربةُ والمشاهدة تدل على ذلك دلالةً لا شكَّ فيها.

والذي يدل على أن المطلوب هو الوسطُ في الأخلاق دون الطرفين أنَّ السخاءَ خُلُقٌ محمود شرعا، وهو وسطٌ بين طرَفَي التبذير والتقتير، وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}، وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، وكذلك المطلوبُ في شهوة الطعام الاعتدالُ دون الشَّرَهِ والجمود، قال الله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}، وقال في الغضب: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، وقال صلى الله عليه وسلم: "خيرُ الأمور أوساطُها(86)"(87).

---

(85) رواه مسلم.

(86) قال السخاوي في "المقاصد الحسنة" : رواه ابن السمعاني في "ذيل تاريخ بغداد" بسند فيه مجهول عن علي مرفوعا، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً: "خير الأعمال أوسطها"، وقال العجلوني في "كشف الخفاء" : قال ابن الفرس: ضعيف. (هامش جامع الأصول: 1/ 318) وقال الألباني: حديث ضعيف الإسناد، وقد رواه أبو يعلى من قول وهب بن منبه بنحوه، وسنده جيد. (جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة: 30)

(87) إحياء علوم الدين: 3/ 56 – 57 ، ومثله في تلبيس إبليس لابن الجوزي: 323 – 324

ثم هذا لا ينكره ابن القيم، بل قد عقد في "المدارج" فصلا لبيانه وتأكيده، وذلك عقيبَ ما نقلناه من كلامه، ثم تخلص منه إلى تقرير إمكان تبدُّل الأخلاق وتغييرها.

وها أنا أسوقه لك لفائدته، قال رحمه الله: **فصلٌ نافع جدا عظيمُ النفع للسَّالِك،** يُوصِله عن قريب، ويُسَيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتُها، فإنَّ أصعبَ ما على الطبيعة الإنسانية: تغييرُ الأخلاق التي طُبِعت عليها، وأصحابُ الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يَظْفَرْ أكثرُهم بتبديلها، لكنَّ النفسَ اشتغلتْ بتلك الرياضات عن ظهور سُلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز، كَسَر جيوشَ الرياضة وشَتَّتَها، واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيرُه أقوى وأجلَّ وأسرعَ من سير العامِل على إزالتها.

ونُقدِّم قبل هذا مَثَلًا نضربه، مطابقا لما نريده:

وهو: نهر جارٍ في صَبَبِه ومُنْحَدَرِه، ومُنْتَهٍ إلى تغريق أرضٍ وعُمرانٍ ودُور، وأصحابُها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يُخَرِّب دُورَهم، ويُتْلِف أراضيَهم وأموالهم، فانقسموا ثلاثَ فِرَق:

فرقةٌ صَرَفَتْ قُواها وقوى أعمالها إلى سَدِّه وحَبْسِه وإيقافه، فلم تصنع هذه الفرقةُ كبيرَ أمر، فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السَّدِّ، فيكون إفساده وتخريبُه أعظم.

وفرقة رأتْ هذه الحال، وعلمت أنه لا يُغني عنها شيئا، فقالت: لا خلاصَ من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع، فرامتْ قَطْعَه من أصله، فتعذر عليها ذلك غايةَ التعذُّر، وأبَتِ الطبيعةُ النهرية ذلك أشدَّ الإباء، فهُمْ دائما في قطع اليَنبوع، وكلما سَدُّوه من موضع نَبَعَ من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأيَ الفِرْقتين، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثيرٌ من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ولا يَتَضَرَّرون، فصرفوه إلى أرضٍ قابلة للنبات، وسَقَوها به، فأنبتت أنواعَ العشب والكَلَأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المَثَل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمتُه: أنْ ركَّبَ الإنسانَ - بل وسائرَ الحيوان - على طبيعةٍ محمولة على قوتين: غضبية، وشهوانية، وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان. فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه، وبقوة الغضب: يدفع المَضارَّ عنها.

فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يَحتاج إليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والعزة. فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوةَ الحقد. وإن أعجزه وصولُ ما يحتاج إليه، ورأى غيرَه مستبدا به: أورثه الحسد. وإن ظَفِر به: أورثَتْه شدةُ شهوته وإرادته: خُلُقَ البخل والشح. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يُمكنه تحصيلُه إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: أورثه ذلك العدوانَ والبغيَ والظلم، ومنه يتولد: الكِبْر والفخر والخُيَلاء، فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب، وتزوج أحدهما بصاحبه.

فإذا تبين هذا، فالنهر مثالُ هاتين القوتين، وهو مُنْصَبٌّ في جدول الطبيعة ومجراها إلى دُور القلب وعُمرانه وحواصله، يُذْهِبُها ويُتلفها ولا بد.

فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخَرَّبَ ديارَ الإيمان، وقَلَع آثاره، وهَدَم عمرانه، وأنبت موضعَها كلَّ شجرة خبيثة، مِن حنظل وضَريع وشوك وزَقُّوم، وهو الذي يأكله أهلُ النار يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤول إليه أمرُ هذا النهر، فافترقوا ثلاثَ فرق:

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخَلَوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه، فأبتْ عليهم ذلك حِكْمَةُ الله تعالى، وما طَبع عليه الجِبِلَّةَ البشرية، ولم تَنْقَد له الطبيعة، فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمي الوطيس، وصارت الحرب دُوَلا وسِجالا، وهؤلاء صرفوا قُواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها، وشغلوا نفوسَهم بالأعمال، ولم يُجيبوا داعيَ تلك الصفات، مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يُمكِّنوا نَهْرَها من إفساد عُمرانهم، بل اشتغلوا بتحصين العُمران، وإحكام

بنائه وأساسه، ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه، فإذا وصل إلى بناءٍ محكم لم يَهْدِمْه، بل يأخذ عنه يمينا وشمالا.

فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء، وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفا من هدم البناء.

وسألت يوما شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة، وقَطْعِ الآفات، والاشتغالِ بتنقية الطريق وتنظيفها؟

فقال لي في جملة كلامه: النفس مثل الباطوس - وهو جُبُّ القَذَر - ، كلما نَبَشْتَه ظهر وخرج، ولكنْ إنْ أمكنك أنْ تَسْقُفَ عليه، وتَعْبُرَه وتَجُوزَه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قَراره، وكلما نبشتَ شيئا ظهر غيرُه.

فقلت: سألتُ عن هذه المسألة بعضَ الشيوخ، فقال لي: مثالُ آفات النفس مثالُ الحَيَّات والعقارب التي في طريق المسافر، فإنْ أقبَل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع، ولم يُمكنه السفر قط، ولكنْ لتكنْ همتُك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عَرَض لك فيها ما يَعوقك عن المسير فاقتله، ثم امضِ على سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدا، وأثنى على قائله.

إذا تبين هذا، فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خُلقت سُدى ولا عبثا، وأنها بمنزلة ماءٍ يسقى به الورد والشوك والثمار والحطب، وأنها صِوانٌ وأصدافٌ لجواهرَ منطويةٍ عليها، وأنَّ ما خاف منه أولئك هو نفسُ سببِ الفلاح والظَّفَر، فرأوا أنَّ الكِبْرَ نهر يسقى به العلو والفخر والبَطَر والظلم والعدوان، ويسقى به علوُّ الهمة والأنفة والحمية والمراغمة لأعداء الله، وقهرُهم والعلوُّ عليهم، وهذه دُرَّةٌ في صدفته، فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس، واستخرجوا هذه الدرةَ من صدفته، وأبقوه على حاله في نفوسهم، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع.

وقد رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا دُجانة يتبختر بين الصَّفَّين، فقال: "إنها لَمِشيةٌ يُبغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع"(88). فانظر كيف خَلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر – وأظنه في المسند – : "إنَّ من الخيلاء ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة"(89). فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلا؟

فصاحب الرياضات، والعامل على قطع أصول هذه الصفات مجتهدٌ على قطع مادة الخيلاء والكبر، وهذا قد أقرَّها في موضعها وأعدَّها لأقرانها، وهو مُصَرِّف لها في مَصْرِف يُعِينه على مطلبه يوصله إليه.

وكذلك خُلُق الحسد، فإنه لا يُذم، وهو كالصدفة لدُرَّةِ الغِبْطة والمنافسة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار"(90). فالحسد يوصل إلى المنافسة التي يحبها الله ويأمر بها في قوله: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}.

فلا تَعْمَلْ على إعدام هذا الخُلُق مِن نفسك، بل اصرِفْه إلى الحسد المحمود، الحامِلِ على المنافسة في الرُّتَب العالية، وتزاحُم أهلها بالرُّكَب. نعم، لا تتمن زوال نعمة الله عن عبد فتزول عنك ويبقيها عليه.

---

(88) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفه. (مجمع الزوائد: 6/ 109)

(89) رواه أحمد في المسند، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره. ولفظه: "إن من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، ومن الخيلاء ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التي يحب الله، فالغيرة في رِيبة، وأما التي يبغض الله، فالغيرة في غير الريبة، وأما الخيلاء التي يحب الله: أن يتخيل العبد بنفسه لله عند القتال، وأن يتخيل بالصدقة".

(90) متفق عليه.

وكذلك خُلُق الحِرْص، فإنه مِن أنفع الأخلاق وأَوْصَلِها إلى كل خير، وشدةُ الطلب بحسب قوة الحرص، فلا تعمل على قطعها، ولكن عَلِّقْها بما ينفع النفسَ في معادها ويُكَمِّلُها ويُزكِّيها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "احرِصْ على ما ينفعك، واستعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ"(91). فقوةُ الحرص لا تُذَم، وإنما يُذم صرفُها إلى ما يَضُر الحرصُ عليه أو لا ينفع وغيرُه أنفعُ للعبد منه.

وكذلك قوة الشهوة مِن أنفع القُوى للعبد، وأَوصَلِها إلى كماله وسعادته، فإنها تُثمر المحبة، وبحسب شهوة العبد للكمال يكون طَلَبُه له، وبحسب قوة شهوته لِلَذَّة العيش ووِصال الأحبة وقرة العين يكون طلبه لذلك في الجنة إن كان مؤمنا بها موقنا مصدقا. فصِدْقُ الشهوة وقُوَّتُها تَحْمِله على بيعِ مُشتهًى دَنِيٍّ خسيس بمشتهًى أعلى منه وأجلُّ وأرفع.

وكذلك قوة الشح والبخل محمودةٌ جدا نافعة للعبد، فإنما تحمله على بخله وشحه بزمانه ووقته وأنفاسه أنْ يُضيعها ويَسْمَح بها لمن لا يساوي، ويَشِح أيضا غايةَ الشح على حظه ونصيبه من الله أن يبيعه أو يهبَه لأحد من الخلق، ويشح أيضا بماله ويبخل به كلَّ البخل أن لا يكون في ميزانه، وأن يتركه لغيره يتنعم به ويفوته هو أجرُه وثوابه.

فالشحيحُ بماله المحبُّ له هو الذي لا يسمح به لغيره، بل يأخذه بين يديه زادًا لمعاده، ومن لا يحبه ولا له قَدْرٌ عنده يرى أنْ يضيعه ويَدَعَه للوارث أو الجائحة والتَّلَف، ولا يستصحبه أمامه، فهذا هو الزاهد في المال، والأول هو الراغب فيه المحب له، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيءٌ من ماله قدمه بين يديه.

وهذه قاعدة مطردة في جميع الصفات والأخلاق، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بصرفها عن مجاريها المذمومة إلى مجارٍ محمودة، وجاؤوا بصرف قوة الشهوة إلى النكاح والتَّسَرِّي، حتى كان لسليمان مائةُ امرأة، ولداود عليه السلام تسعٌ وتسعون(92)، وجَمَعَ رسولُ الله صلى الله عليه

---

(91) رواه مسلم.

(92) قال ابن كثير في تفسيره عند آية {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}: قد ذكر المفسرون هاهنا قصةً أكثرُها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يَثْبُت فيها عن المعصوم حديثٌ يجب

وسلم بين تِسْعٍ، وأباح للأُمَّة أربعًا مما طاب لهم من النساء، ومن السَّراري بلا حَصْر، صَرْفًا لقوة هذه الشهوة عن مجرى الحرام إلى مجرى الحلال الذي يحبه الله، وهو أحبُّ إليه مِن نَفْلِ العبادة عند أكثر الفقهاء. وكذلك جاؤوا بصرف القوة الغضبية إلى جهاد أعداء الله والغِلْظة عليهم والانتقام منهم. وكذلك جاؤوا بصرف قوة اللهو والركوب ونحوه إلى اللهو بالرمي والمسابقة على الخيل وركوبها في سبيل الله، واللهو في العُرس. وكذلك شهوة استماع الأصوات المُطْرِبَة اللذيذة لا تُذم بل تحمد، وقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه واستمع قراءته، وقال: "لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل دواد"(93). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره إذا حضر عنده مع الصحابة أن يُسْمِعَهم قراءتَه، فيقرأ وهم يسمعون. هذا كان سماعَ القوم، فمَن حَرَّم هذا السماعَ أو من كَرِهَه؟ وهل هذا إلا سماعُ خواصِّ الأولياء؟ فأين هذا من سماع المُكاء والتَّصْدية وقرآنِ الشيطان وآلاتِ المعازف بنغمات الشاهد؟ فلا بد للروح مِن سماعٍ طيِّب تتغذى به، ولكن لا يستوي مَن غذاؤُه العسلُ والحلوى والطيبات، ومن غذاؤه الرجيعُ والميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله. ويا عجبا إنْ كان أهلُ هذا الغذاء لا يرون آثارَه على شفاههم ووجوههم! أفلا يستحيون من معاينة أرباب البصائر ذلك عليهم؟

والمقصودُ أن رسوم الطبيعة وقُواها لا يمكن تعطيلُها في دار الابتلاء والامتحان، فالبصير العارف يستعملها في مواضعها النافعة له التي لا تَخْرِمُ عليه دينا، ولا تقطع عليه طريقا، ولا تُفسد عليه حالَه مع الله، ولا تُسقطه من عينه.

اتباعُه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد - وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيفُ الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يُقتصَر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأنْ يُرَدَّ عِلْمُها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حقٌّ أيضا. (تفسير ابن كثير: 7/ 60 . وإن رمتَ زيادةً نافعة على هذا، فانظر في "محاسن التأويل" للقاسمي: 8/ 248 — 252)

(93) متفق عليه.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب لمن هو مُعتنٍ بهذا الشأن، وعاملٌ على صلاح قلبه وتزكية نفسه، وإنما دخل الداخلُ حيث ظُنَّ أنَّ تزكيةَ النفس وتهذيب الأخلاق يتيسر بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات، هيهات هيهاتَ هيهات، إنما يُوقِع ذلك في الآفات والشبهات والضلالات، فإن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل صلواتُ الله وسلامُه عليهم، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولَّاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوةً وتعليما وبيانا وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، وقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}.

وتزكية النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشد، فمن زكَّى نفسَه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي عالج نفسَه برأيه، وأين يقع رأيُه مِن معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يكون الخُلُق كسبيا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيا بالتخلُّق والتكلُّف، حتى يصيرَ له سَجِيَّةً ومَلَكة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشجِّ عبد القيس: "إنَّ فيك لَخُلُقَين يحبهما الله [ورسوله]: الحِلْم، والأَناة، فقال: أخُلُقين تَخَلَّقْتُ بهما، أم جَبَلَني اللهُ عليهما؟ فقال: بل جبلك الله عليهما. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يُحِبُّهما اللهُ ورسوله"(94). فدَلَّ(95) على أنَّ مِن الخلق: ما هو طبيعةٌ وجِبِلَّة، وما هو مُكتسَب(96).

---

(94) رواه أحمد وأبو داود، وحسنه الألباني. ولفظ أحمد: "أنا تَخَلَّقْتُهما أو جبلني الله عليهما؟"، ولفظ أبي داود: "أنا أتخَلَّقُ بهما أم الله جبلني عليهما؟". وفي صحيح مسلم عن عبد الله ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج أشج عبد القيس: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة".

قال الماوردي: من المتعذِّرِ أن تكون أخلاقُ الفاضل كاملةً بالطبع، وإنما الأغلبُ أن يكون بعضُ فضائلِه بالطبع، وبعضُها بالتطبُّع الجاري بالعادة مجرى الطبع، حتى يصير ما تطَبَّع به في العادة أغلبَ عليه مما كان مطبوعا عليه إذا خالف العادة، ولذلك قيل: العادةُ طبعٌ ثانٍ(97).

وقيل أيضا: المُزاولات تُعطي المَلَكات، ومعنى ذلك: أنَّ من زاول شيئا واعتاده وتمرن عليه، صار ملكة له وسجية وطبيعة، والعوائد تَنقل الطبائع، فلا يزال العبد يتكلف التصبُّرَ حتى يصير الصبرُ له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحِلْمَ والوقار والسكينة والثباتَ حتى تصير له أخلاقا بمنزلة الطبائع، وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوةَ القبول والتعلُّم، فنَقْلُ الطبائع عن مقتضياتها غيرُ مستحيل، غيرَ أنَّ هذا الانتقالَ قد يكون ضعيفا، فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث، وقد يكون قويا ولكن لم يَنْقُلِ الطبعَ، فقد يعود إلى طبعه إذا قويَ الباعثُ واشتد، وقد يَسْتَحْكِم الانتقالُ بحيث يَسْتَحْدِث صاحبُه طبعا ثانيا، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذي انتقل عنه(98).

وعليه فالمَلَكة: إما طبيعية، وإما عادية، وهي – كما قال ابن صدر الدين الشرواني في "الفوائد الخاقانية" – : أن يُزاوِل في الابتداء فعلًا باختياره، وبتكرُّرِه والتمرن عليه تصير ملكةً حتى يصدر عنه الفعلُ بسهولةٍ من غير روية. ففائدةُ علم الأخلاق بالقياس إلى الأولى: إبرازُ ما كان كامنا في النفس، وبالقياس إلى الثانية: تحصيلُها(99).

قال الشهاب الخفاجي: واعلم أنهم اختلفوا في الأخلاق، وهل هي كلُّها غريزية من غير كسب، أو كلها كسبية، أو بعضها كسبية وبعضها غير كسبية، وإليه ذهب المحققون(100).

---

(95) قال ابن حجر الهيتمي: فترديد السؤال وتقريره عليه، يُشْعِر بأن في الخلق الجبليَّ والمكتسب. (المنح المكية في شرح الهمزية: 168)

(96) مدارج السالكين: 3/ 36 – 47 ط عالم الفوائد، و3/ 2197 – 2213 ط الصميعي.

(97) أدب الدنيا والدين: 164 ، وانظر: درر السلوك في سياسة الملوك له أيضا: 56 – 57 .

(98) عدة الصابرين لابن القيم: 21

(99) أبجد العلوم: 1/ 254

(100) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض: 1/ 484 ، وانظر: 2/ 209 منه أيضا.

ولا ريب أنه لولا قبولُ الأخلاق للتغيير، وإمكانُ تحصيل ما ليس حاصلا منها، لذهبت فائدةُ الأمرِ بحَسَنِها والنهيِ عن قبيحها(101).

قال الغزالي: يَزْعُم بعضُ من يستثقل المجاهدة والرياضة: أنَّ الأخلاقَ لا يُتصور تغييرُها، ولو صح ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات. وكيف يُنكَر هذا في حق الآدمي وتغييرُ خُلُق البهيمة ممكنٌ(102)، إذ يُنقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلبُ مِن شَرَه الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرسُ من الجِماح إلى السلاسة والانقياد(103)، وكلُّ ذلك تغييرٌ للأخلاق، فأجدَرُ بالإنسان أنْ يَتغير بالرياضة خُلُقُه، وذلك بأن لا يَقهر هواه العقلَ ولا يغلبه، بل يكون العقلُ هو الضابط له والغالب عليه، وذلك ممكن، فإنه ربما يستولي الغضبُ على المرء بحيث لا يقوى على دفعه، وبالرياضة يعود إلى حد الاعتدال، وهو المرادُ بتغيير الخُلُق، فدل أن ذلك ممكن، والتجربةُ والمشاهدة تدل على ذلك دلالةً لا شك فيها(104).

---

(101) انظر: نسيم الرياض: 2/ 208 — 209

(102) قال الفيروزآبادي: اعلم أنه لا شيءَ أشنع ولا أقبح بالإنسان، مع ما كرمه الله وفضله به من الاستعدادات والقابلية لقبول الآداب، وتعلُّمِ العلوم والصنائع= مِن أنْ يَغْفُلَ عن نفسه ويُهْمِلَها، حتى تبقى عاريةً من الفضائل، كيف وهو يشاهد أنَّ الدوابَّ والكلاب والجوارح المعلَّمة ترتفع أقدارُها، ويُتغالى في أثمانها. (بصائر ذوي التمييز: 1/ 41)

(103) قال عبد السلام هارون في "كناشة النوادر" (ص31) تحت عنوان "تعليم الحيوان" : لكل حيوان مما خلق الله قدر من الذكاء قل ذلك أو كثر، حتى الحمارُ وهو مضرب المثل في الغباء، أمكن للإنسان أن يلج به بابَ التعليم والتدريب. ومما يُروى عن القدماء في هذا المجال، ما كان ممن يُدْعى: الأسودَ الكذاب العَنْسي: أحد المتنبئين باليمن في صدر الإسلام، وكان يلقب "ذا الحمار". يقول المسعودي في التنبيه والإشراف: كان له حمارٌ قد راضَه وعلَّمَه، فكان يقول له: اسجدْ فيسجد، ويقول له: اجثُ، فيجثو. وغير ذلك من أمور كان يدعيها، ومخاريقَ كان يأتي بها، يجتذب بها قلوبَ متبعيه اهـ .

(104) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي: 4 ، وقد لخصه من كتاب الإحياء: 1/ 55 – 57 ، وانظر: ميزان العمل للغزالي أيضا: 247 ت سليمان دنيا.

ومما يحسن أن نختم به هذا البحث: ما ذكره الشيخ محمد بن موسى الشريف في كتابه "جَدِّدْ حياتَك" تحت عنوان "التجديد الأخلاقي" حيث قال ما نصُّه: وهذا مطلوبٌ أيضا، وهو تجديدٌ محمود، خاصة لمن ساءت أخلاقُه، أو قَلَّ احتمالُه، أو كان في طباعه شيء، فما أجملَ أنْ يعود المرءُ من جديد ليُغالِب نفسَه، ويجاهد طَبْعَه، ويقهر مألوفاتِه، وهو نوعٌ من التجديد محسوسٌ مؤثر، ممكن إلى حد كبير، وذلك أن أكثر الناس يظن أنه لا يستطيع تغييرَ ما أَلِفَه ودرج واكتهل عليه، وهذا صحيح، لكن لمن لم يَجْهَدْ في التغيير ولم يَشتدَّ في المغالبة، وانظر إلى وصف الإمام الذهبي الإمامَ الغزالي، رحمهما الله تعالى، حيث ذكر أنَّ الغزالي تغير خُلُقُه إلى الأفضل والأحسن بعد المغالبة والمجاهدة، فقال: "عَظُم جاهُ الرجل، وازدادت حِشْمَتُه، بحيث إنه في دَسْتِ أمير(105)، وفي رتبة رئيس كبير! فأدَّاه نظرُه في العلوم وممارسته لأفانين الزهديات إلى رفض الرئاسة، والإنابة إلى دار الخلود، والتألُّه والإخلاص، وإصلاح النفس، فحَجَّ مِن وقته، وزار بيتَ المقدس... وأقام مدة، وألَّفَ كتابَه "الإحياء"، وراضَ نفسَه وجاهدها، وطرد شيطانَ الرعونة، ولَبِسَ زِيَّ الأتقياء، ثم بعد سنوات سار إلى وطنه، لازمًا لسننه، حافظا لوقته، مُكِبًّا على العلم"، ثم ذكر الإمامُ الذهبي – رحمه الله – قولَ أحدِ العلماء المعاصرين له، حيث قال: "لقد زرتُه مرارا، وما كنتُ أَحْدُس(106) في نفسي – مع ما عَهِدْته عليه من الزعارة(107)، والنظرِ إلى الناس بعين الاستخفاف، كِبْرًا وخُيلاءَ واعتزازا بما رُزِق من البسطة والنطق والذهن! – أنه صار على الضد، وتَصَفَّى من تلك الكدورات، وكنت أظنه مُتَلَفِّعا بجلباب التكلُّف(108)، مُتَنَمِّسًا بما صار إليه(109)، فتحقَّقْتُ بعد السَّبْر والتنقير(110) أنَّ الأمرَ على خلاف المظنون، وأنَّ الرجلَ أفاق بعد الجنون"(111)!!

---

(105) دست: منصب.

(106) أحدس: أخمن وأظن.

(107) الشراسة وسوء الأخلاق.

(108) أي: أن هذا التحسن في الخلق متكلَّف، وليس بطبع ولا سجية.

(109) مفسدا مخادعا.

فهذا الإمام الغزالي كان يعاني مما يعاني منه كثيرٌ من طلبة العلم والمشايخ والدعاة والفضلاء اليوم، مِن ضيقٍ في الخُلُق، وشراسة في الطبع، وجفاءٍ في المعاملة، وذَرَبٍ في اللسان، ولكنه رحمه الله راضَ نفسَه وجاهدها، وعَمِل على أنْ يُغير من خلقه إلى الأحسن والأفضل، فوفقه الله تعالى لذلك، ورَزقه إياه(112).

وهذا آخر ما تيسر جمعُه في هذه المقدمة، نفع الله بها جامعَها ومن قرأها، وقد كان الفراغُ منها مبيَّضة ليلة الأربعاء 14 من شهر جمادى الآخر سنة 1442 (113)، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين.

---

(110) البحث والتفتيش والكشف.

(111) "نزهة الفضلاء": 4/ 1481، 1482 .

(112) جدد حياتك: 52 – 54 . وللشيخ عبد الكريم زيدان – رحمه الله – فصل نافع مفيد جدا، كَتَبه تحت عنوان "هل يمكن اكتساب الأخلاق وتقويمها؟" وقد ذيله بذكر طَرَفٍ صالح من وسائل تقويم الأخلاق، ترى كلَّ ذلك في كتابه "أصول الدعوة" : 93 – 102 .

(113) يوافقه: 27/ 01/ 2021 .